الوجودية الإسلامية والتصوف الحقيقي

للأستاذ ابراهيم محمد البطاوى

عنوان يبدو متناقضا للوهلة الأولى، ولكنى قصدت اليه قصدا ، فالوجوديون الذين نعرفهم سيماهم الضلال وشعارهم الاستباحة والتبجح ، واذا كان الدين هو الحياة حسب قانون رب الوجود ومنزل الدين الذى قال : «استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما (يحييكم) » فان نسبة هؤلاء اللادينيين الى الوجود خاطئة ، فبداية الكفر اعدام حرية الانسان فى الدنيا بالاستعباد للشهوة ونهايته اعدام لكل سعادة بشرية بعد هذه الدنيا ، فهى جديرة بأن تكون (عدمية) لا (وجودية) .

* * *

وانصافا للحق نقول انه ان كانت الوجودية الحديثة الملحدة عند هيديجر فيلسوف ألمانيا قد أدت الى الدمار النازى ، وعند سارتر فى فرنسا قد زادت من الدمار الخلقى ، نقول زادت ! فما كانت فرنسا فى يوم من الأيام ذات رفيع من الخلق جنسيا كان أم حربيا . فلقد وجدنا ومضات من الايمان تنبثق من وجوديين قدامى ومحدثين كالتى لمسناها عند كيركجورد الدانمركى فى القرن الماضى وكتلك التى تقاوم الحادية سارتر واضرابه فى نفس فرنسا على يد جبرائيل مارسيل فى القرن الحالى .

* * *

ومهما اختلف المنهجان فى الغاية ، فان وسيلتهما فى الاستدلال تكاد تكون واحدة ، وبعبارة أخرى نجد السلم يبدأ واحدا ثم يتفرع شعبا ودروبا ، وأول خطو السلم الوجودى التى يتلاقى فيها المؤمن بالكافر هى اتفاقهم على أن خلقة الانسان شىء غير حقيقة وجوده ، فالخلقة لمن خلقها تنسب وليس للانسان فهى ليست وجودا بالنسبة للمخلوق ، انما وجوده هو

ما يقوم به من فعل يؤكد حريته ووجوده ، فهو يوجد نفسه حين يؤدى فعلا يخرج به من حيز الامكان الى الواقع أو من حيز الجوهر الى الوجود الظاهر وبعبارة أخرى من حيز العدم الى الوجود ممتطيا فى تنفيذه لأفعاله سيارة عجيبة هى (الحرية) . الى هنا نجد أن هذه النظرة اسلامية على الرغم من حداثة المذهب الوجودى فى الغرب ، ولقد عبر خالق الوجود جل علاه عن هذا المعنى فى أكثر من موضع فى القرآن كما رأينا فى وصفه العاملين به أنهم (أحياء) أى (وجوديون) فهم الى الحياة أو الوجود ينسبون . وحين قال فى قانون آخر (ليس للانسان الا ما سعى) أى عمل فبالعمل والانتاج قام كل وجود حتى الجماد نفسه حين يتحرك وينتج يوصف بالوجود وحين لا ينتج الزرع والثمر عد ميتا معدوما « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون » .

* * *

النقطة التى افترق فيها الكفر عن الايمان ، والوجود عن العدم والاسلام عن الوجودية الغربية اذن هى الفهم لمعنى الحرية ، فمعظم الوجوديين يجعلون امام الحرية وقائدها هو العاطفة والهوى فكأنهم فى الحقيقة لم يتحرروا الا من الحرية ، وهنا تتدخل الصوفية الاسلامية الحقة لتنقذ الانسان وتحرره من كل قيد أو هوى ، وتعتبر سجوده للعواطف شركا وكفرانا حتى لا يسود الانسان الا صالح الانسان وحتى يكون الانسان سيد نفسه وسيد هواه وسيد الأرض بأسرها . ولهذا جاء اللوم والتوبيخ الالهى لهذا الذى أهدر حريته واستعبد لهواه فعده مشركا بالله « أفرأيت من اتخذ الهه هواه ؟)

فالحرية ان كانت تلبية وخضوعا لأمر الهوى غير المشروع جرت الى الشقاء والدمار والحروب لأنها فى حقيقتها عبودية ، وأما ان كنت تستعمل حريتك فيما لا تضر نفسك أو غيرك أى تعمل بمقتضى القانون الالهى الذى يعرف ويدافع عن صالحك أكثر منك ، هنا فقط تكون قد تخلصت من اسارك وجميع قيودك ، وهنا فقط تكون هذا (الحر) .

والصوفية الحقيقية تسعى لتحرير الانسان من شهواته ونزواته بالتطبيق السليم لهذه الشريعة الكاملة السمحاء ولقد كان امام الصوفية أبو

حامد الغزالى أول من صاح يوم وصل الى هذه الحقيقة الوجودية أى يوم أن كمل تدينه فكملت وجوديته فقال قولته المشهورة :

قد كنت عبداً والهوى مالكى فعدت حرا والهوى خادمى

* * *

هنا تشعر بالسيادة الحقيقية وأن وجودك ينسب اليك أو ما يسميه ابن خلدون وأكثر الصوفية « يتم لك كما لك الذى هو لك منك وبك » فلا تخشى الا الله ، ولا تستحى أن تقول كلمة الحق أمام أعظم مخلوق أو ضده ان جانب الصواب ، ولا تقصر عن طالب الرزق والسير دائما نحو معالى الأمور « فاذا فرغت فانصب ، والى ربك فارغب » وتوجد غيرك بأن تساعده على التحرر الذى صرت اليه حتى يتكون المجتمع الحر الصحيح « كنتم خير أمة أخرجت للناس : تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » تأمر نفسك أولا وتنهاها ثم أهلك ثم صحابك ومن حولك وهكذا ، تدأب فى سيرك نحو الكمال الذى رسمه لك قانون الوجود العام وهو القرآن : توجده فى أفعالك فتوجد نفسك بوجوده فيك « اذا دعاكم لما يحييكم » ولذا كان سيد الرسل محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يوصى صديقه أبا بكر أن يدعو دائما ربه قائلا له « أن ترزقنى القرآن والعلم به ، واخلطه بلحمى ودمى ، وسمعى وبصرى، واستعمل به جسدى بحولك وقوتك ، فانه لا حول ولا قوة الا بك يا أرحم الراحمين » . هنا فقط تكون موحدا لربك بحق فتصبح صلاتك وتنجح خلوتك وتبتلك اليه ، على شرط ألا تشترى بدينك دنيا ، ولا تقبل عن تصوفك أو تدينك وطاعتك لربك أجرا والا هلكت وأهلكت (ألا لله الدين الخالص) فان فعلت قال الله : « اذن فأنت صوفى حقيقى . اذن فأنت مسلم حقيقى ما دمت موجودا للاسلام فى أفعالك . أى ما دمت وجوديا اسلاميا . اذن فأنت بحق موجود » .

ابراهيم محمد البطاوى